الباب التاسع والثلاثون: في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد وفيه فصول

الفصل الأول: في الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغي»[1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة في النار» وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلث من كنَّ فيه كنَّ عليه؛ البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: ﴿إنما بغيُكُم على أنفسِكُم﴾[2] وقال تعالى: ﴿فمن نكثَ فإنما ينكُثُ علي نفسِه﴾[3] وقال تعالى: ﴿ولا يحيق المكرُ السيِّىءُ إلا بأهلِهِ﴾[4] وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر، وضاقت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكه غير قادر، وأوقعه في خطة خسف[5] وورطة حتف، فما له من قوة ولا ناصر. ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الألباب، من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري. وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي ﷺ فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله ادعُ الله أن يرزقني مالاً. فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثعلبة أما لكَ في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده، لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت» ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة ما قال» فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها ونزل وادياً من أوديتها، وهي تنمو كما ينمو الدود.

وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم، وتنحَّى صار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلي بقية الصلوات في غنمه. فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن "مدينة حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقَّى الناس ويسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم. فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ

---

(١) البغي: الظلم.
(٢) سورة: يونس، الآية: ٢٣.
(٣) سورة: الفتح، الآية: ١٠.
(٤) سورة: فاطر، الآية: ٤٣.
(٥) خسف: غار في الأرض.

غنماً ما يسعها واد. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة»، فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بني سليم، ورجل من جهينة، وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها. وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب، وبرجل آخر من بني سليم، فخذا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ. فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قالا: ما هذا؟ قال: خذاه فإن نفسي به طيبة. فمرا على الناس، وأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة. فقال: أروني كتابكما. فقرأه ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية. اذهبا حتى أرى رأياً. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله ﷺ فلما رآهما قال قبل أن يتكلما: يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى: ﴿**ومنهم مَنْ عاهدَ الله لئِنْ آتانا من فضلِهِ لنصّدّقنّ ولنكونَنَّ منَ الصالحين * فلما أتاهم من فضلِهِ بخلُوا بهِ وتولَّوا وهُم مُعْرِضُون * فأعقبَهُم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونَهُ بما أخلفوا الله ما وعدُوهُ وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلمُ سرَّهم ونَجْواهم وأنَّ الله علاّمُ الغيوب**﴾[1].

وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى للنبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة، فجعل ثعلبة يحثو[2] التراب على رأسه ووجهه. فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني. فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً. ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال: قد علمتَ منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار. فاقبل صدقتي. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك فلا أقبلها أنا. فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولم يقبلها. فلما ولي عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي فلم يقبلها منه وقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه فأنا لا أقبلها. وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها. ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه فسأله أن يقبض صدقته فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر رضي الله عنهما فأنا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسَمَهُ بِسِمَةِ عار قضت عليه بخسره، وأعقبه نفاقاً يخزيه يوم فاقته وفقره. فأي خزي أرجح من ترك الوفاء بالميثاق، وأي سوء أقبح من غدرٍ يسوق إلى النفاق، وأي عار أفضح من نقض العهد إذا عد مساوىء الأخلاق. وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء، واتضاع[3] قدره عن احتمال المكاره، في جنب نيل المكارم، قال الشاعر:

غـدرتَ بـأمـر كنـتَ أنـتَ جـذبتنـا ... إليـه وبئـس الشيمـةُ الغـدرُ بـالعهـدِ

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلني الله إن خذلته. فقال ذلك ثلاث مرات. فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت

---

(١) سورة: التوبة، الآيات: ٧٥ ـ ٧٨.
(٢) يحثو: تعفّر به.
(٣) اتضاع: وضاعته وسفالته.

الله: يا أبا العباس أجد في نفسي أن امري لا يتم. فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟ قال: لأني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاعة، كان ملكاً بين دجلة والفرات، وكان له هناك قصر مشيد، يعرف بالجوسق، وبلغ ملكه الشام، فأغار على مدينة سابور ذي الاكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور، وقتل منهم خلقاً كثيراً. ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء. ثم إن النضيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت. فخرجت من الربض[١] وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حِضْنَ. وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآه ورأته فعشقها وعشقته، وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لي إن دللتك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أحكمك. فقالت عليك بحمامة مطوقة ورقاء[٢] فاكتب عليها بحيض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة، فتداعى المدينة كلها. وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر، فإذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك. فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة، وقتل الضيزن واحتمل ابنته النضيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشوّ بريش النعام. فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعنكتها[٣]، وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها. ثم أن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل إنه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً، وضفر غدائرها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعاً قطّعه الله ما أغدره.

وتقول العرب: جزاني جزاء سنمار، وهو أن ازدجرد بن سابور لما خاف على ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مريء. فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام إلى النعمان، وهو عامله على أرض العرب، وأمره أن يبني له جوسقاً فامتثل أمره، وبني له جوسقاً كأحسن ما يكون. وكان الذي بني الجوسق رجلاً يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه، عجبوا من حسنه. فقال: لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت. فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع. فكانت العرب تقول: جزاني جزاء سنمار.

وممن غدر، عبد الرحمٰن بن ملجم لعنه الله غدر بعلي رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله. وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى، ثم غدر به وأخره، وقدم المهدي عليه فقال عيسى:

أَيْنَسَى بنُو العباس ذبِّي[٤] عنهم ... بسيفي ونارُ الحرب زاد سعيرُها
فَتَخْتُ لهم شرقَ البلادِ وغربَها ... فذلَّ معاديها وعزَّ نصيرها
أُقطِّع أرحاماً عليّ عزيزةً ... وأبدي مكيداتٍ لها وأثيرُها

(١) الربض: دغلة خارج المدن.
(٢) ورقاء: في لونها بياض إلى سواد.
(٣) بعنكتها: بين ثناياها.
(٤) ذبّي: دفاعي.

فلمـا وضَعْـتُ الأمـرَ فـي مستقـرِّهِ ولاحَـتْ لـه شمـسٌ تـلألأ نـورُهـا
دفَعْـتُ عـن الأمـرِ الـذي استحِقُّـهُ وأوسـقَ[1] أوسـاقـاً مـن الغـدرِ عيـرُهـا

وخرج قوم لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت. فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

ومَـنْ يصنـعِ المعـروفَ مـع غيـر أهلـه يـلاقِ كمـا لاقـى مجيـرُ أمِّ عـامـرِ[2]
أعـدَّ لهـا لمـا استجـارَتْ ببيتـه أحـاليـبَ ألْبَـانِ اللقـاحِ الـدرائـرِ
وأسمَنَهَـا حتَّـى إذا مـا تمكَّنَـتْ فَـرَتْـهُ بـأنيـابٍ لهـا وأظـافـرِ
فقُـلْ لـذوي المعـروفِ هـذا جـزاءُ مَـنْ يجـودُ بمعـروفٍ علـى غيـر شـاكـرِ

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بعجوز بين يديها شاة مقتولة، وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت: أتدري ما هذا؟ فقلت: لا. قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا وربيناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى وأنشدت:

بقـرتَ شـويهتـي وفجَعْـتَ قـومـي وأنـتَ لشـاتِنـا إبـنٌ ربيـبُ
غـذِيـتَ بـدُرِّهـا ونشَـأتَ مَعْهَـا فَمَـنْ أنبـاكَ أنّ أبَـاكَ ذيـبُ
إذا كـان الطبـاعُ طبـاعَ سـوءٍ فـلا أدبٌ يفيـدُ ولا أديـبُ

اللهم أنا نعوذ بك من البغي وأهله، ومن الغادر وفعله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثاني: في السرقة والسرّاق

قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقاً. فقال لا إله إلا الله. سارق العلانية يقطع سارق السر. وأمر الاسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إني فعلتُ ما فعلت وأنا كاره. فقال: وتصلب أيضاً وأنت كاره. وسرق مدني قميصاً فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه، فجاء له فقال: بكم بعته فقال: برأس المال. وقال أكتل السلمي وكان لصاً فاتكاً:

وإنـي لأستحيـي مـن الله أن أُرى أجـرجـرُ حبلـي ليـس فيـه بعيـرُ
وأن أسـألَ المـرء الـدنـيءَ بعيـرَهُ وأجمـالُ ربِّـي فـي البـلادِ كثيـرُ

قال الفرزدق:

وإن أبـا الكـرشـاءِ ليـس بسـارقٍ ولكـن متـى مـا يسـرقِ القـوم يـأكـلِ

وكان لعمرو بن دويرة البجلي أخ قد كلف ببنت عم له، فتسور عليها الدار ذاتَ ليلةٍ فأخذه إخوتها وأتوا به

(١) أوسق: أحمل جموعاً.
(٢) مجيرُ أم عامر: من كنى الضبُع.

خالد بن عبد اللّه القسري وجعلوه سارقاً، فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية. فهم خالد بقطعه فقال عمر وأخوه:

أخالدُ قد والله أوطئتَ عشوةً ... وما العاشقُ المظلومُ فينا بسارقِ
أقرَّ بما لم يأتِهِ المرءُ أنه ... رأى القطعَ خيراً من فضيحةِ عاشقِ

فعفا عنه خالد، وزوّجه الجارية.

الفصل الثالث: في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فأغرَينا بينهُمُ العداوةَ والبغضاءَ إلى يوم القيامة﴾[١] وقال تعالى: ﴿إنَّ الشيطان للإنسانِ عدوٌّ مبين﴾[٢].. وقال تعالى: ﴿إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ فاتَّخِذُوه عدوّاً﴾[٣] وقال تعالى: ﴿إن من أزواجِكُم وأولادِكُم عدوّاً لكُم فاحذَرُوهُم﴾[٤] وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوِّك نفسك التي بين جنبيك». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: العداوة تتوارث. وقال زياد بن عبد اللّه.

فلو أني بليتُ بهاشميٍّ ... خؤولته بنو عبدِ المدانِ
صبرتُ على عداوتِهِ ولكنْ ... تعالوا فانظُروا بمنِ ابتلاني

وبثّ رجل في وجه أبي عبيدة مكروهاً فأنشأ يقول:

فلو أن لحمي إذ وهى[٥] لعبَثْ به ... سباعُ كرامٍ أو ضباعٌ وأذؤبُ
لهوَّن وجدِي، أو لسلَّى مصيبتي ... ولكنما أودَى بلحمي أكلبُ

وقيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً. قال: عدوي. قيل وكيف ذلك. قال لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة، أهون من مداواة ما خفي وبطن. وقالوا: إياكَ أن تعادي مَنْ إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك في لحافه. وقال أبو العتاهية:

تنحَّ عن القبيحِ ولا تُرِدْهُ ... ومَنْ أوليتَه حسناً فزِدْهُ
ستلقَى مِن عدوِّكَ كلَّ كيدٍ ... إذا كادَ العدو ولم تكِدْهُ

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب. فلمّا كبر وشب قال:

---

(١) سورة: المائدة، الآية: ١٤.
(٢) سورة: يوسف، الآية: ٥.
(٣) سورة: فاطر، الآية: ٦.
(٤) سورة: التغابن، الآية: ١٤.
(٥) وهى: انحلّ وضعف.

أصابَ أبي خالي وما أنا بالذي أميلُ وأمري بين خالي ووالدي
وأورثَ جسَّاسُ بن مرَّةَ غصَّةً إذا ما اعترَتْني حرُّها غيرُ باردِ

ثم قال بعد ذلك:

يا لَلرجالِ لِقلبٍ ما له جلدٌ كيف العزاءُ وثاري عند جسَّاسِ

ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم تَرَني ثَأرْتُ أبي كليباً وقد يرجى المرشحُ للدخولِ
غسلتُ العارَ عن جسمِ ابن بكرٍ بجساسِ بنِ مرَّةَ ذي البتولِ[1]

وقد قيل:

سنَّ العداوةَ آباءٌ لنا سلفوا فلن تبيدَ ولَلآباءِ أبناءُ

ويقال: دَارِ عدوك لأحد أمرين، إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكنك. وكتب سويد إلى مصعب:

فبلِّغْ مصعباً عني رسولي وهل تلقَى النصيحَ بكل وادِ
تعلَّمْ أنّ أكثرَ مَنْ تناجي وإن ضحكوا إليك هُمُ الأعادي

ويقال: فلان كثير المراق من المذاق[2]. وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك. قال: أدخل الله الجنةَ أشدَّنا بغضاً لصاحبه. ولما أراد أنو شروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه. وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمتَ في أخلاقهم ما علمت. فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات. وكانت أم قباذ تركية وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم. فقيل: هو قصير وذلك يذهب ببهاء الملك. فقال: إن قصره من رجليه، ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يستبين ذلك فيه. فقيل: هو بغيض في الناس. فقال: أواه هلك ابني هرمز. فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد، ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس، فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد، ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه.

ولستُ براءٍ عيبَ ذي الودِّ كلِّه ولا بغضَ ما فيه إذا كنتُ راضياً
فعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ كما أن عينَ السخطِ تُبدي المساويا

وفي المعنى قيل:

وعينُ البغضِ تبرز كلَّ عيبٍ وعينُ الحبِّ لا تجدُ العيوبا

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور، وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدَّيْن. وأكلتُ الطيبات وعانقتُ الحسان، فلم أرَ شيئاً ألذَّ من العافية، وأنا أقول: لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصاً إذا كانوا مساهمين في نسب، أو مجاورين في بلد. اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم، وسوء الفهم،

(١) ذي البتول: العذراء.
(٢) من المذاق: قلة الإخلاص.

وشماتة ابن العم، وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء، وأنشد الجاحظ:

تقولُ العاذلاتُ تسلَّ عنها ... وداوِ عليلَ قلبِكَ بالسلوِّ
وكيفَ، ونظرةٌ منها اختلاساً ... ألذُّ من الشماتِةِ بالعدوِّ

وقال ابن أبي جهينة المهلبي:

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى ... فتهُونُ غيرُ شماتِةِ الأعداءِ

قال الجاحظ: ما رأيتُ سناناً أنفذ من شماتة الأعداء. وقيل لما قبض رسول الله ﷺ وسمع بموته نساء من كندة وحضرموت، فخضبن أيديهن وضربن بالدفوف، فقال رجل منهم:

أبْلِغْ أبا بكرٍ إذا ما جئتَهُ ... إن البغايا من بني مرّام
أظهَرْنَ في موتِ النبي شماتةً ... وخضبن أيديهنَّ بالعُلَّامِ[1]
فاقطَعْ هُدِيتَ أكفَّهُنَّ بصارمٍ ... كالبرقِ أومَضَ في متونِ غمامِ

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله فأخذهن وقطع أيديهن. ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحاً إلا في فسادك، ولا رفعة إلا في سقوط حالك. وقال حكيم: لا تأمن من عدوك وإن كان ضعيفاً، فإن القناة، قد تقتل، وإن عدمت السنان. قال الشاعر:

فلا تأمن عدوَّكَ لو تراه ... أقل إذا نظرتَ من القرادِ[2]
فإنّ الحربَ ينشأ من جبانٍ ... وإن النار تضرم من رمادِ

بيت مفرد:

فمن لم يكن منكم مسيئاً فإنّهُ ... يشدُّ على كفِّ المسيءِ فيجلبُ

وقال عبد اللّه بن سليمان بن وهب:

كفايةُ الله خيرٌ من توقِّينا ... وعادةُ الله الماضِينَ تكفينا
كادَ الأعادي فلا والله ما تركوا ... قولاً وفعلاً وتلقيناً وتهجينا
ولم نزد نحن في سرٍّ وفي علنٍ ... على مقالتنا يا ربَّنا اكفينا
فكانَ ذلك ورد الله حاسدَنا ... بغيظِهِ لم يَنَلْ تقديره فينا

الفصل الرابع: في الحسد

قال الله تعالى: ﴿أم يحسُدُونَ الناسُ على ما آتاهم الله من فضله﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء

(١) بالعُلَّام: نبات أحمر يختضب به.
(٢) القراد: حشرة صغيرة من أضراب القمل.
(٣) سورة: النساء، الآية: ٥٤.

حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». وقال عليّ رضي الله عنه: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له. وقيل الحسود غضبان على القدر، ويقال ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش الحقد والحسد وسوء الخلق.. وقيل: بئس الشعار الحسد. وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك. قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد. وقال إعرابي: الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: قاتل الله الحسد ما أعْدَلَهُ، بدأ بصاحبه فقتله، وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود. أولاهما غم لا ينقطع، الثانية مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة مذمة لا يحمد عليها، الرابعة سخط الرب، الخامسة يغلق عنه باب التوفيق.

ومن ذلك، ما حكي أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقرَّبه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه. إن لم أحتمل على هذا البدوي في قتله، أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني عنه. فصار يتلطَّف بالبدوي، حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعاماً، وأكثر من الثوم، فلما أكل البدوي منه فقال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك، فإنه يكره رائحته. ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه. فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم. فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول له فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي ودفع إليه الكتاب وقال له امض به إلى فلان، وائتني بالجواب، فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده. فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان. فقال الوزير في نفسه. إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل. فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار. فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي افعل. قال: أعطني الكتاب فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصد. فلا قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي. وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فحضر. فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها. فقال له: أنت قلت عني للناس إني أبخر. فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكراً منه وحسداً، واعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم، وما جرى له معه. فقال: يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدَلَهُ، بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذه وزيراً، وراح الوزير بحسده، وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

آلُ المهلـبِ قـومٌ إن مـدَحْتَهُـمُ ... كـانـوا الأكـارمَ آبـاءً وأجـدادا
إن العـرانيـن[1] تلقَـاهـا محسـدة ... ولا نـرى للئـامِ النـاس حسـادا

وقال عمر رضي الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك. وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة

(١) العرانين: الأشراف.

في كل شيء، إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشدُّ تحاسداً من التيوس. وعن أنس رضي الله عنه رفعه «إن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب» وقال منصور الفقيه:

منافسةُ الفتى فيما يزولُ ... على نقصانِ همَّتِهِ دليلُ
ومختارُ القليلِ أقلُّ منه ... وكلُّ فوائدِ الدنيا قليلُ

يقول الله عز وجل: الحاسد عدوّ نعمتي، متسخط لفعلتي، غير راض بقسمتي، التي قسمت لعبادي. قال الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على مَنْ أسأتَ الأدَبْ؟
أسأتَ على الله في حكمِهِ ... لأنَّكَ لم تَرْضَ لي ما وَهَبْ
فأخزاكَ[1] ربي بأن زادني ... وسدَّ عليك وجوهَ الطلَبْ

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك. فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلوا السيد من ودود يمدح وحسود يقدح. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله، وقيل لعبد اللَّه بن عروة: لِمَ لزمتَ البدو وتركتَ قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسد على نعمة، أو شامت على نكبة؟ وقال الشاعر:

يا طالبَ العيشِ في أمنٍ وفي دعةٍ[2] ... رغداً بلا قترٍ صفواً بلا رنقِ[3]
خلِّصْ فؤادك من غلٍّ ومن حسدٍ ... فالغلُّ في القلبِ مثلُ الغلِّ في العنقِ[4]

وقال آخر:

إصبِرْ على حسدِ الحسـ ... ـودِ فإن صبرَك قاتلُهْ
كالنارِ تأكلُ بعضُها ... إن لم تجد ما تأكلُهْ

وفي نوابغ الحكم: الحسد حسك، مَنْ تعلق به هلك. ولبعضهم:

إني حُسدتُ فزاد الله في حسدي ... لا عاشَ مَنْ عاشَ يوماً غير محسودِ

وقال نصر بن سيار:

إني نشأتُ وحسادي ذوو أعددِ ... يا ذا المعارجِ لا تنقص لهم عددا
أن يحسدوني على ما بي لما بهم ... فمثلُ ما بي مما يجلبُ الحسدا

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمّاً؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) أخزاك: أذلك وأهانك.
(٢) دعةٍ: خفض عيش.
(٣) رنق: كدر.
(٤) العنق: الغل الأولى الحقد، والثانية القيد.